تفسير ابن كثير

يقول تعالى مرشدا للمؤمنين إلى ما يعتمدونه في حروبهم مع المشركين { فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب } أي إذا واجهتموهم فاحصدوهم حصدا بالسيوف { حتى إذا أثخنتموهم } أي أهلكتموهم قتلا { فشدوا الوثاق } الأسارى الذين تأسرونهم ثم أنتم بعد انقضاء الحرب وانفصال المعركة مخيرون في أمرهم إن شئتم مننتم عليهم فأطلقتم أساراهم مجانا وإن شئتم فاديتموهم بمال تأخذونه منهم وتشارطونهم عليه والظاهر أن هذه الاية نزلت بعد وقعة بدر فإن ا سبحانه وتعالى عاتب المؤمنين على الاستكثار من الأسارى يومئذ ليأخذوا منهم الفداء والتقليل من القتل يومئذ فقال : { ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا وا يريد الآخرة وا عزيز حكيم * لولا كتاب من ا سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم } ثم قد ادعى بعض العلماء أن هذه الاية المخيرة بين مفاداة الأسير والمن عليه منسوخة بقوله تعالى : { فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم } الاية رواه العوفي عن ابن عباس Bهما وقاله قتادة والضحاك والسدي وابن جريج وقال الاخرون وهم الأكثرون : ليست بمنسوخة ثم قال بعضهم : إنما الإمام مخير بين المن على الأسير ومفاداته فقط ولا يجوز له قتله وقال آخرون منهم : بل له أن يقتله إن شاء لحديث قتل النبي صلى ا عليه وسلّم النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط من أسارى بدر وقال ثمامة بن أثال لرسول ا صلى ا عليه وسلّم حين قال له : [ما عندك يا ثمامة ؟] فقال إن تقتل تقتل ذا دم وإن تمنن تمنن على شاكر وإن كنت تريد المال فاسأل تعط منه ما شئت وزاد الشافعي رحمة ا عليه فقال : الإمام مخير بين قتله أو المن عليه أو مفاداته أو استرقاقه أيضا وهذه المسألة محررة في علم الفروع وقد دللنا على ذلك في كتابنا الأحكام و سبحانه وتعالى الحمد والمنة .

وقوله D : { حتى تضع الحرب أوزارها } قال مجاهد : حتى ينزل عيسى بن مريم E وكأنه أخذه من قوله صلى ا عليه وسلّم : [لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يقاتل آخرهم الدجال] وقال الإمام أحمد : حدثنا الحكم بن نافع حدثنا إسماعيل بن عياش عن إبراهيم بن سليمان عن الوليد بن عبد الرحمن الجرشي عن جبير بن نفير قال : إن سلمة بن نفيل أخبرهم أنه أتى رسول ا صلى ا عليه وسلّم فقال إني سيبت الخيل وألقيت السلاح ووضعت الحرب أوزارها وقلت : لا قتال فقال له النبي صلى ا عليه وسلّم : [الان جاء القتال لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الناس يزيغ ا تعالى قلوب أقوام فيقاتلونهم ويرزقهم ا منهم حتى يأتي أمر ا وهم على ذلك ألا إن عقد دار المؤمنين بالشام والخيل معقود في نواصيها

الخير إلى يوم القيامة] وهكذا رواه النسائي من طريقين عن جبير بن نفير عن سلمة بن نفيل السكوني به .

وقال أبو القاسم البغوي : حدثنا داود بن رشيد حدثنا الوليد بن مسلم عن محمد بن مهاجر عن الوليد بن عبد الرحمن الجرشي عن جبير بن نفير عن النواس بن سمعان Bه قال : لما فتح على رسول ا صلى ا عليه وسلّم فتح قالوا يا رسول ا سيبت الخيل ووضعت السلاح ووضعت الحرب أوزارها قالوا لا قتال قال : [كذبوا الان جاء القتال ولا يزال ا تعالى يرفع قلوب قوم يقاتلونهم فيرزقهم منهم حتى يأتي أمر ا وهم على ذلك وعقر دار المسلمين بالشام] وهكذا رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي عن داود بن رشيد به والمحفوظ أنه من رواية سلمة بن نفيل كما تقدم وهذا يقوي القول بعدم النسخ كأنه شرع هذا الحكم في الحرب إلى أن لا يبقى حرب وقال قتادة { حتى تضع الحرب أوزارها } حتى لا يبقى شرك وهذا كقوله تعالى : { وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين } ثم قال بعضهم : حتى تضع الحرب أوزارها أي أوزار المحاربين وهم المشركون بأن يتوبوا إلى ا D وقيل أوزار أهلها بأن يبذلوا الوسع في طاعة ا تعالى وقوله D : { ذلك ولو يشاء ا لانتصر منهم } أي هذا ولو شاء ا لا نتقم من الكافرين بعقوبة ونكال من عنده { ولكن ليبلو بعضكم ببعض } أي ولكن شرع لكم الجهاد وقتال الأعداء ليختبركم ويبلو أخباركم كما ذكر حكمته في شرعية الجهاد في سورتي آل عمران وبراءة في قوله تعالى : { أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم ا الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين } .

وقال تبارك وتعالى في سورة براءة : { قاتلوهم يعذبهم ا بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين * ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب ا على من يشاء وا عليم حكيم } ثم لما كان من شأن القتال أن يقتل كثير من المؤمنين قال : { والذين قتلوا في سبيل ا فلن يضل أعمالهم } أي لن يذهبها بل يكثرها وينميها ويضاعفها ومنهم من يجري عليه عمله طول برزخه كما ورد بذلك الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده حيث قال : حدثنا زيد بن يحيى الدمشقي حدثنا ابن ثوبان عن أبيه عن مكحول عن كثير بن مرة عن قيس الجذامي ـ رجل كانت له صحبة ـ قال : قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم [يعطى الشهيد ست خصال : عند أول قطرة من دمه تكفر عنه كل خطيئة ويرى مقعده من الجنة ويزوج من الحور العين ويأمن من الفزع الأكبر ومن عذاب القبر ويحلى حلة الإيمان] تفرد به أحمد C .

(حديث آخر) قال أحمد أيضا : حدثنا الحكم بن نافع حدثني إسماعيل بن عياش عن بحير بن سعيد عن خالد بن معدان عن المقدام بن معد يكرب الكندي Bه قال : قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم : [إن للشهيد عند ا ست خصال : أن يغفر له في أول دفقة من دمه ويرى مقعده من الجنة ويحلى حلة الإيمان ويزوج الحور العين ويجار من عذاب القبر ويأمن من الفزع

الأكبر ويوضع على رأسه تاج الوقار مرصع بالدر والياقوت الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ويشفع في سبعين إنسانا من أقاربه] وقد أخرجه الترمذي وصححه وابن ماجة وفي صحيح مسلم عن عبد ا بن عمرو Bهما عن أبي قتادة Bه أن رسول ا صلى ا عليه وسلّم قال : [يغفر للشهيد كل شيء إلا الدين] وروي من حديث جماعة من الصحابة Bهم وقال أبو الدرداء Bه : قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم : [يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته] ورواه أبو داود والأحاديث في فضل الشهيد كثيرة جدا .

وقوله تبارك وتعالى : { سيهديهم } أي إلى الجنة كقوله تعالى : { إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم } وقوله D { ويصلح بالهم } أي أمرهم وحالهم { ويدخلهم الجنة عرفها لهم } أي عرفهم بها وهداهم إليها قال مجاهد : يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم وحيث قسم ا لهم منها لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا لا يستدلون عليها أحدا وروى مالك عن ابن زيد بن أسلم نحو هذا وقال محمد بن كعب : يعرفون بيوتهم إذا دخلوا الجنة كما تعرفون بيوتكم إذا انصرفتم من الجمعة وقال مقاتل بن حيان : بلغنا أن الملك الذي كان وكل بحفظ عمله في الدنيا يمشي بين يديه في الجنة ويتبعه ابن آدم حتى يأتي أقصى منزل هو له فيعرفه كل شيء أعطاه ا تعالى في الجنة فإذا انتهى إلى أقصى منزله في الجنة دخل إلى منزله وأزواجه وانصرف الملك عنه ذكره ابن أبي حاتم C وقد ورد الحديث الصحيح بذلك أيضا رواه البخاري من حديث قتادة عن أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري Bه أن رسول ا صلى ا عليه وسلّم قال : [إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار يتقاضون مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة والذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أهدى منه بمنزله الذي كان في الدنيا] .

ثم قال تعالى : { يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا ا ينصركم ويثبت أقدامكم } كقوله D : { ولينصرن ا من ينصره } فإن الجزاء من جنس العمل ولهذا قال تعالى : { ويثبت أقدامكم } كما جاء في الحديث [من بلغ ذا سلطان حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبت ا تعالى قدميه على الصراط يوم القيامة] ثم قال تبارك وتعالى : { والذين كفروا فتعسا لهم } عكس تثبيت الأقدام للمؤمنين الناصرين تعالى ورسوله صلى ا عليه وسلّم وقد ثبت الحديث عن رسول ا صلى ا عليه وسلّم أنه قال : [تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم تعس عبد القطيفة تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش !] أي فلا شفاه ا D وقوله سبحانه وتعالى : { وأضل أعمالهم } أي أحبطها وأبطلها ولهذا قال : { ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل ا } أي لا يريدونه ولا يحبونه { فأحبط أعمالهم }